سيرة الأستاذ جوذر

تصنيف أبى على منصور العزيزى الجوذرى

تقديم وتحقيق الدكتورين محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة

(دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٥)

المكتبة العربية ترحب بهذا النص التاريخى الخاص بالدولة الفاطمية وأيامها فى تونس ، ولأبى على الجوذرى مصنف هذا الكتاب وأمين الأستاذ جوذر ، شكر المعنيين بالمراجع الأصلية للتاريخ الفاطمى فى هذا الدور التونسى . وللدكتورين محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة شكر الباحثين فى مطويات هذا التاريخ ، بما قاما عليه من نشر هذا الكتاب نشراً علمياً جيداً من نسختين مخطوطتين ، مع تقديمه بمقدمة تعريفية ، وتحشيته بتعليقات توضيحية ، فضلا عن فهرس أبجدى عام يستطيع القارىء الاستعانة به عند الحاجة العابرة ، مع العلم بأن القيمة الدفينة فى هذا الكتاب لا تظهر إلا بعد قراءته كله فى إمعان .

وعنوان الكتاب لا ينمّ فى الواقع عن محتوياته النادر وجودها فى غيره ، إذ ليست هذه المحتويات سيرة رجل شهد الدولة الفاطمية منذ أيام نشأتها الأولى على يد عبيد الله المهدى إلى أيام انتقالها إلى مصر أيام المعز ، بل هى سلسلة من الرسائل التى تبادلها الخلفاء الفاطميون والأستاذ جوذر فى بعض مسائل الحكومة الداخلية والقصر والأسطول وشئون السياسة الخارجية . وتستطيع هذه المحتويات تجاوزا أن تسمى سيرة ، من حيث أن المصنف أبى على الجوذرى رتبها ترتيباً تاريخياً لتنبىء هى عن شخصية أستاذ فاطمى وأخلاقه ومكانته ، دون أن يعلق عليها أو يشرح أسباب كتابتها إلا بقدر ضئيل ، متوخياً فى ذلك فيما يبدو شيئاً من الموضوعية اللبقة اللازمة لأمين حين يدون أخبار مخدومه عن طريق الرسائل الوثائقية الخاصة التى وصلت إليها يده .

والأستاذ جوذر صقلبي الأصل من أواسط أوربا ، جاء إلى تونس عن طريق الرق الأوربي الأبيض الذى اتجر فيه يهود العصور الوسطى مع أرباب الدول الإسلامية الغنية بشمال أفريقية ومصر والشام . واتفق مجيء جوذر إلى تونس والدعوة الفاطمية فى أول أمرها ، ودولة الأغالبة فى أواخر أيامها ، على مسرح التاريخ . وسواء أكان جوذر من مماليك الأغالبة المتأخرين ، أم أنه من مشتريات عبيد الله المهدى الفاطمى ، فالمعروف أن عبيد الله ترسم فيه نجابة وفطانة ، فلم يلبث أن عينه مؤدباً لابنه أبى القاسم ، ووهبه له (ص ٣٥ — ٣٦) . ولم يكن جوذر صقلبياً وحيداً بين عبيد الفاطميين ، إذ المعروف أن الفاطميين استجلبوا كثيراً من الصقالبة ، الذين ما لبثوا أن عتقوا وصاروا يملأون وظائف الدولة الفاطمية . ومنهم جوهر الكاتب الملتصق اسمه بفتح مصر ، وسرور ، وصافى ، شفيع ، وريان ، وقيصر ، وأفلح ، وكلهم معروف بنسبته إلى أصله الصقلبى .

وظل جوذر على وظيفته المسئولة مدة طويلة تأدب فيها عليه أولياء العهد فى الدولة الفاطمية ، من أبى القاسم حتى المعز . وصار كل من أولئك خليفة ، وحفظ كل منهم لجوذر مكانته عنده ، فبقى قريباً من أخبار البلاط الفاطمى قرباً جعله قادراً على أن يقف من أهل القصور الفاطمية وحرم الخلفاء الفاطميين موقف الأستاذ المؤدب المسموع الكلمة (ص ٩ — ١٠ من المقدمة) . وتولى جوذر فضلا عن هذه الأستاذية الكبيرة عدة وظائف ديوانية كبيرة كذلك ، حتى صار مثابة الوزير الأكبر فى الدولة الفاطمية الناشئة ؛ ومن هذا وذاك تتضح قيمة الوثائق الواردة فى هذا الكتاب الصغير ، ويستطيع القارىء بين سطور هذه الوثائق أن يهتدى إلى بعض أركان السياسة الفاطمية ووسائلها ، وأن يتعرف على بضع نواح مجهولة فى شخصيات الخلفاء الفاطميين الأولين (انظر مثلا خطبة الخليفة المنصور بإعلان وفاة أبيه القائم ص ٥٥ — ٦٠) .

على أن الأهمية الكبرى لهذا الكتاب تتركز فيما يستدل منه على شخصية المعز الذى تم على يديه فتح مصر (ص ٧٢ ، وما بعدها) ، ولاسيما ما ورد فى بعض الرسائل المتبادلة بين الخليفة وأستاذه من إشارات إلى أحلام بعيدة رامية

إلى التوسع الفاطمى بعد مصر إلى مكة وبغداد (ص ١١١ ، ١٣٧ ، ١٣٩) . غير أن جوذر لم يعش ليرى بعينه شيئاً من محاولات تحقيق هذه الأحــلام الإمبراطورية ، بل إنه لم ير مصر بعد فتحها ، إذ رافق ركب الخليفة المعز نحو مصر ، وفى عزمه فيما يبدو أن يستقر بالعاصمة الفاطمية الجديدة ، أى القاهرة ، ولكنه توفى فى الطريق ببرقة سنة ٩٦٩ م (ص ١٤٣ — ١٤٨) . غير أن الذى يدعو إلى الالتفات هنا أن اسم جوذر وصل إلى القاهرة ، دون أن يصل هو إليها جسمياً حتى بعد وفاته ، بل إن اسمه لا يزال باقياً بها حتى العصر الحاضر فى حى وشارع وحارة وعطفة تحمل كلها اسم الجودرية (بالدال ، نسبة إلى جوذر بعد شىء من تمصير النطق) وهى أمكنة تموج بالتجارة القاهرية الرابحة منذ العصور الوسطى . هل معنى هذا أن الأستاذ نقل أمواله إلى القاهرة وأنه اعتزم الإقامة بها على مقربة من طلعة الخليفة المعز ، برغم ما شاع وقتذاك من تقرير الخليفة تعيينه نائباً عنه بالمغرب ؟ أم هل معناه أن أتباع جوذر انتقلوا بعد وفاته إلى القاهرة ، وصار لهم شأن فى حياتها الاقتصادية أو السياسية أو الدينية ، بحيث أصبح لهم حى وعقار وأملاك ثابتة فى جزء من أهم أجزاء القــاهرة الفاطمية ؟ أم هل معناه أن الأستاذ خلف أسرة عاشت وغنيت فروعها بالقاهرة ؟

ومن الجديد فى هذا الكتاب إشارات إلى اشتغال بعض أولياء العهد فى الدولة الفاطمية بالتجارة الخاصة ، واشتغال جوذر وغيره بالأعمال التجارية ، بالإضافة إلى توليته وظائف الحكم بين الناس (٦٢ ، ٦٩) ، وهى إشارات توجد أمثالها فى عصور سابقة ولاحقة ، وهى فى مجموعها أصل لما كتبه ابن خلدون فى الأضرار والمفاسد التى تلحق بالمجتمع من اشتغال أرباب الدولة بالبيع والشراء والكسب التجارى (انظر مقدمة ابن خلدون — بولاق — ص ٢٣٤ — ٢٣٦) . ومن الجديد فى هذا الكتاب كذلك نهى الناس ومنعهم من إطلاق البكاء والنوح فى الوفيات (ص ٤٣ ، ١٠٠) ، واعتبار سلمان الفارسى من الأئمة الفاطميين (ص ٦٥) ، وتفاصيل بعض الطريق من المهدية إلى القاهرة (ص ١٤٣) ، وهذا فضلا عن صفيف زاخر من الألفاظ الاصطلاحية التى تستطيع أن تملأ فراغاً فى معجم المفردات اللازمة للبحوث التاريخية الحديثة ،

ومثال ذلك من الألفاظ المعتصمين ص ٤٣ ، خفيفة سفرية ص ٤٧ ، دنانير رباعية ص ٦٠ ، المرصدين ص ٧٠ ، التمريث ص ٨٩ ، السكاك ص ٩١ ، الفرانقين ص ٩٩ ، الزانات ١١٣ ، العدوات ١١٤ ، وغيرها . وللناشرين شكر ثان للعناية بشرح معظم هذه الألفاظ في قائمة التعليقات في آخر الكتاب .

محمد مصطفى زياده